الفصل التاسع

فى

تخطئته وتصويبه

لم يسلم الجاحظ على سعة علمه ، وبارع فهمه ، وشدة يقظته من الوقوع فى الخطأ ، وأى امرئ فى الوجود لم يجز عليه السهو ؟ ! قال على بن يحيى المنجم [١] : قلت للجاحظ : مثلك فى علمك ومقدارك فى الأدب يقول فى كتاب « البيان والتبيين » ويكره للجارية أن تشبه بالرجال فى فصاحتها ؟ ألا ترى قول مالك بن أسماء الفزارى [٢] .

أَمُعْطِى مِنِّى عَلَى بَصَرِى لِلْحُسْنِ أَمْ أَنْتِ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنَا
وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَانًا وَأَحْلَى الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

---

(١) هو أبو الحسن على بن يحيى بن منصور ، المنجم النديم . كان من خاصة ندماء المتوكل ومتقدميهم ، ثم نادم من بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد وكان راوية إخباريا شاعراً محسنا ، وله فى صنعة الغناء يد طولى ، وكان من حب الخلفاء له وثقتهم به يجلسونه بين يدى أسرتهم ويفضون إليه بأسرارهم ويستودعون صدره أخبارهم ونواياهم . توفى بسر من رأى فى آخر أيام المعتمد سنة ٢٧٥ هـ

(٢) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى وهذه الأسرة من أمجد أسر العرب . وكان مالك من أنبلها : تزوج الحجاج ابن يوسف أخته هند بنت أسماء وولاه أصبهان وله معه حوادث وخطوب . وكان شاعرا بليغا وأميرا سريا غير أنه كان مولعا بالشراب

فتراه من لحن الإعراب ؟ ؟ و إنما وصفها بالظرف والفطنة ، وأنها تلحن أى تُوَرِّى فى لفظها عن أشياء وتتنكب ماقصدت له ؟ !

فقال الجاحظ : فطنت لذلك

فقلت : فغيره

فقال : فكيف لى بما سارت به الركبان ؟

فهو فى كتابه على خطائه .

قال أبو مُحَلِّم [1] تعليقا على هذا : أراد الفزارى بقوله هذا : إن خير الحديث ما أومأت إلىّ به وورت به عن الإفصاح لئلا يعلمه غيرنا . ومثله قول الكلابى :

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْمَا تَفْهَمُوا ... وَوَحَيْتُ وَحْياً لَيْسَ بِالْمُرْتاب

ومنه قوله تعالى « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ الْقَوْلِ » أي فيما يتوحونه بينهم من النفاق والطعن

وقد وقفت على قول لأبى حيان التوحيدى يبرر به ماذهب إليه الجاحظ أول مرة قال :

وعندى أن المسألة محتملة للكلام ، لأن مقابل المنطق الصائب المنطق الملحون ، واللحن من الفوانى والفتيات غير منكور ولامكروه ، بل يُستحب ، لأنه بالتأنيث أشبه ، وللشهوة أدعى ، ومع الغزل أجرى . والإعراب جد ، وليس الجد من التغزل والتعشق والتشاحى فى شىء . وعلى مذهب على

---

(١) هو أبو محلم محمد بن سعد (وفى اسمه خلاف بين الرواة) السعدى الشيبانى . أصله من الفرس ومولده بفارس ثم انتسب إلى بنى سعد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر قوى الحافظة شديد الذاكرة ، وكان يغلظ طبعه ويفخم كلامه . توفى سنة ٢٤٨ هـ

ابن يحيى أن المنطق الصائب هو الكلام الصريح، وأن اللحن هو التعريض، وأنها تعرف هذا وهذا ، فهب أن هذا المعنى مقبول ، لم ينبغى أن يكون المعنى الآخر لهوجا ومردوداً ؟ ؟ وقد يجوز أن يكون مراد الشاعر ذاك ، لأن الشاعر يشعر بهذا كما يشعر بهذا .

ولم يصنع أبو حيان بملاحظته هـذه أكثر من أنه صوب الرأيين ، و برّر المعنيين ، على تكلف فيما جاء به ، دفعه إليه تعصبه للجاحظ ، وافتتانه به ، وغيرته عليه :

وخطأه المسعودى فى الجغرافيا فقال : زعم الجاحظ أن نهر مكران الذى هو نهر السند ، من النيل ؟ ! و يستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه . فلست أدرى كيف وقع له هـذا الدليل ؟ وذكر ذلك فى كتابه « الأمصار » وهو كتاب فى نهاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تعرف المسالك والأقطار ، و إنما هو حاطب ليل ، ينقُل عن كتب الوراقين .

ولا شك فى أن المسعودى مصيب فى هذه المسألة لأنها مما اختص به من العلوم والمعارف ، ولا ضير على الجاحظ من الخطأ فيما ليس من شأنه ، و إن كان تعرضه لما لا يحسن غير لائق بمثله . والظاهر أن تعرض المسعودى للجاحظ بهذه الصورة كان قصاصا وقع على الجاحظ لتعرضه للخليل بن أحمد[1] فى شىء من هذا الضرب . فقد كان الجاحظ قال عنه فى كتابه فى تفضيل صنعة الكلام ، وهى الرسالة المعروفة بالهاشمية :

---

(١) هو الخليل بن احمد الأزدى . كان غاية فى الذكاء والفطنة وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب . وكان زاهداً متورعا وله شعر قليل، وهو أول من وضع كتابا فى اللغة اسمه « العين » مات سنة ١٧٠ هـ

إن الخليل بن احمد من أجل إحسانه فى النحو والعروض ، وضع كتابا فى الايقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مس بيده قضيبا قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين . وكتب كتابا فى الكلام ، ولو جهد كل بليغ فى الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك ، ولو ان ممرورا استفرغ قوى مرته فى الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك ، ولا يتأتى مثل ذلك لأحد إلا بخذلان من الله الذى لا يقى منه شىء . قال : ولو لا أن أسخف الكتاب وأهجن الرسالة وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل لحكيت صدر كتابه فى التوحيد و بعض ما وضعه فى العدل . قال : ولم يرض بذلك حتى عمد إلى الشطرنج فزاده فى الدولاب حملا فلعبت به أناس من حاشية الشطرنجيين ثم رموا به

والجاحظ فى هذا قد آخذ الخليل بما هو من خاصة معارفه ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بعلم الكلام والتوحيد والعدل . أما ما آخذه به من غير ذلك فهو من عامة معلوماته وفنونه ولكن « الجروح قصاص »

الفصل العاشر

فى

مقامه لدى العارفين بمناقبه

أما مقامه لدى عارفى فضله ، ومنزلته فى نظر أهل التحقيق ، فليس يُعد من المبالغة فى شىء إذا قيل إنه سيد كتّاب العربية بلا منازع ، وشيخ أدباء العرب بلا مدافع ، ومن البداهة أن يوصف بأنه إمام ذوى اللسن والبيان ، وعميد أهل الفصاحة والتبيان ، وأنه كان على مناقب قلما جاراه فيها غيره من أهل العلم والأدب وأرباب الحكمة والفلسفة. فقد سمت به همته ، وعلت به معارفه إلى أن صار من مفاخر الاسلام ، بل من محاسن العربية الذين يتنافس أعلام الرجال بالانتساب إليهم . وقد وضع أبو حيان التوحيدى فيه كتابا أسماه « تقريظ الجاحظ » لم نطلع عليه ، ولعله باد فيما باد من كتب القدماء ، غير أن ياقوت قد روى لنا منه هذه الكلمة العجيبة عن أبى حيان قال : حدثنى أبو سعيد السيرافى [1] — وَهَلَكَ من رجل ، وناهيك

(١) هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله (بهزاد) السيرافى أحد أكابر الأدباء وأفاضل المتكلمين . قال عنه أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ : شيخ الشيوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة . أقتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ولا عثرة على زلة ، وقضى ببغداد . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرزانة ، صام أربعين سنة أو أكثر الدهر . قلت : وقد ناظر متى بن يونس المنطقى فى المفاضلة بين النحو والمنطق فأظهر قوة فى الجدل واستنارة

من عالم ، وشَرْعَكَ من صَدُوق ، قال : حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب أن ثَابِتَ بْنَ قُرَّةَ قال [١] :

ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس :

أولهم — عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته ، وحذره وتحفظه ، ودينه ويقينه ، وجزالته وبذالته ، وصرامته وشهامته ، وقيامه فى صغير أمره وكبيره بنفسه ، مع قريحة صافية ، وعقل وافر ، ولسان عضب ، وقلب شديد ، وطوية مأمونة ، وعزيمة مأمومة ، وصدر منشرح ، وبال منفسح ، وبديهة نضوح ، وروية لقوح ، وسر طاهر ، وتوفيق حاضر ، ورأى مصيب ، وأمر عجيب ، وشأن غريب ، دعم الدين وشيد بنيانه ، وأحكم آساسه ورفع أركانه ، وأوضح حجته وأنار برهانه ، مَلَك فى زِى مِسكين ؛ ماجنح فى أمر إلى وَنَا ، ولا غض طرفه على خنا ، ظِهارته كالبِطانة ، وبطانته كالظهارة ، جرح وأسا ، ولان وقسا ، ومنع وأعطى ، واستخذى وسطا . كل ذلك فى الله ولله . لقد كان من نوادر الرجال

والثانى — الحسن بن أبى الحسن البصرى [٢] ، فلقد كان فى درارى

الجحة وبراعة فى مقارعة الخصم تفوق كل براعة . وقد أتينا عليها فى كتاب المقابسات . ومات سنة ٣٦٨ هـ

(١) هو أبو الحسن ثابت بن قرة الصابى الحرانى الشهير : كان طبيباً فيلسوفا ذا فضائل ، وكان فصيحا مبينا ذا حكمة وأدب عالى القدر بعيد الهمة وافر الحرمة سريا نبيلا . ولد سنة ٢٢١هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٨٨ هـ

(٢) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى . وقد أنشأنا له ترجمة نشرنا خلاصتها فى جريدة السياسة الأسبوعية بعددها الصادر فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وسننشرها فى كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » الذى سنصدره بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

النجوم علما وتقوى ، وزهدا وورعا ، وعفة ورقة ، وتألّها وتنزها ، وفقها ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانيا ، لاقريبا ولا مدانيا . كان منظره وفق مَخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته . عاش سبعين سنة لم يُقْرَفْ بمقالة شنعاء ، ولم يُزَنَّ بريبة ولا فحشاء . سليم الدين ، نقيُّ الأديم ، محروس الحريم . يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه . هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يتبع فى كلامه ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى له الفُتْيَا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة . وهو فى جميع هذا كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألّقاً ، ولاتنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصُّلب ، واللسان العضب ، كالحجاج [1] وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقى . لاتثنيه لائمة فى الله ، ولا تُذهله رائمة عن الله . يجلس تحت كرسيه قَتَادَةُ [2] صاحب التفسير ، وعَمْرُو وَوَاصِل [3] صاحبا الكلام ،

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى ، أسد الدولة المروانية وموطد دعائمها ومثبت أركانها ومحكم أساسها ، ولولا مواقفه المشهورة وسياسته الدكتاتورية لاكتسح الخوارج دولة بنى مروان ولأصبحت فى خبر كان . فهو من بناة الدول وله حوادث وأخبار هى مما يزدان به الأدب العربى . مات سنة ٩٥ هـ

(٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى الأكمه : كان من أفاضل التابعين ، مقصود الجناب يحمل عليه إلى الآفاق ، وكان قدريا على مذهب المعتزلة قيل هو الذى سماهم بهذا الاسم . تصدر فى مجلس الحسن البصرى بعد وفاته وانتهج نهجه وكان على عماه يدور البصرة أعلاها وأسفلها بغير قائد . توفى بواسط سنة ١١٧ هـ

(٣) عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء هما زعيما المعتزلة وشيخا أهل الاعتزال .

وابن أبي اسحق[1] صاحب النحو، وَفَرْقَدُ السَّبَخِيُّ[2] صاحب الرقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم. فمن ذا مثله، ومن ذا يجرى مجراه ؟؟

والثالث — أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدره المتقدمين والمتأخرين. إن تكلم حكى سَحبان[3] البلاغة، وإن ناظر صارع النظام فى الجدل، وان جد خرج فى مَسْكِ عامر بن عبد قيس[4] وإن هزل زاد على مزبد[5] حبيب القلوب ومراح الأرواح. شيخ الأدب ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة. ماتازعه متنازع الا رشاه آنفا، ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استبقاء. أخلفاء

وواضعا مذهب العدل والتوحيد، ومقررا أصول الاعتزال. وسترى ترجمتهما مستفيضة. فى كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » الذى سنصدره بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

(١) هو أبو بحر عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بالولاء. كان إماما فى النحو وهو أول من وضع علله وجرد أقيسته. وكان لا يرى التسليم فى كل ما جاء عن العرب. وله مع الفرزدق الشاعر أخبار وحوادث. مات سنة ١١٧ هـ

(٢) هو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى. أصله من أرمينية وانتقل إلى البصرة وصاحب الحسن البصرى وأخذ عنه. وكان من الزهاد المتنسكين مات سنة ١٣١ هـ

(٣) هو سحبان وائل الخطيب العربى المشهور. راجع ترجمته فى شرحنا على كتاب « البيان والتبيين »

(٤) هو عامر بن عبد قيس. كان من بلغاء الزهاد وفصحاء النساك. وكان يغزو متطوعا. وقد ترجمناه فى شرحنا على « البيان والتبيين »

(٥) هو أبو إسحق مزبد المدنى. كان صاحب نوادر وفكاهات، سريع الخاطر حسن البادرة كثير الدعابة. وقد ترجمناه فى شرحنا على كتاب « المقابسات » وذكرنا له كثيراً من نوادره وفكاهاته

تعرفه ، والأمراء تصفه ، و [الملوك] تنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه . جمع بين اللسان والقلم ، و بين الفطنة والعلم ، و بين الرأى والأدب ، و بين النثر والنظم ، و بين الذكاء والفهم . طال عمره وفشت حكمته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به . لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب

قال أبوحيان : هذا قول ثابت ، وهو قول صابىء لا يرى للاسلام حرمة ، ولا للمسلمين حقا ، ولا يوجب لأحد منهم ذماما . قد انتقد هذا الانتقاد ، ونظر هذا النظر ، وحكم هذا الحكم ، وأبصر الحق بعين لاغشاوة عليها من الهوى ، ونفس لالطخ بها من التقليد ، وعقل ماتحيل بالعصبية . ولسنا نجهل مع ذلك فضل غيرهؤلاء من السلف الطاهر ، والخلف الصالح . ولكنا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منا ، ولا من أهل ملتنا ولغتنا ، ولعله ما خبر عمر بن الخطاب كل الخبرة ، ولا استوعب ما للحسن من المَنقِبة ، ولاوقف على جميع ما لأبى عثمان من البيان والحكمة . يقول هذا القول ، ويعجب هذا العجب ، ويحسد أمتنا بهم هذا الحسد ، ويختم كلامه بأبى عثمان ويصفه بما يأبى الطاعن عليه أن يكون له شيء منه ، ويغضب إذا ادعى ذلك له ، وأنه للموفر عليه ! ! هل هذا الا الجهل الذى يرحم المبتلى به . . . . ! !

قلت : الظاهر أن أبا حيان بلغه إطراء عن ثابت لهولاء الرجال الثلاثة أو قرأ فصلا له فى شيء من مناقبهم ، فتمثل هذا الإطراء وتصور تلك المناقب وصاغها فى هذا الأسلوب البارع ونسبه إلى ذلك الحكيم الصابىء ، ليكون لهذه الكلمة شأنها من المنزلة الرفيعة ومقدارها من المكان الجليل متى نسبت الى رجل من أكابر الصابئة ، لاينتظر أن يعنى كثيرا بهذه الناحية

من رجال الاسلام . وان كان المعروف عن ثابت أنه كان من خواص أهل الفصاحة والحكمة والبيان

وقال أبو حيان : قلت لأبي محمد الأندلسي [١] — وكان في عداد أصحاب السيرافي — : قد اختلف أصحابنا ، في مجلس أبي سعيد السيرافي ، في بلاغة الجاحظ وأبي حنيفة [٢] صاحب النبات ، ووقع الرضى بحكمك ، فما قولك ؟

فقال : أنا أحقر عن الحكم لهما أو عليهما

فقلت : لابد من قول !

فقال : أبو حنيفة أكثر نداوة . وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لائطة بالنفس ، سهلة في السمع . ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل في أساليب العرب

قال أبو حيان : والذي أقوله وأعتقده وآخذ به وأستهام عليه ؛ أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان في تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم ، وعلمهم ، ومصنفاتهم ، ورسائلهم ، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم :

هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة و بسببه جُشمنا هذه الكلفة ، أعني أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الأندلسي . قال الصفدي : كان من فرسان النحو واللغة والشعر ، وكان مغرى بكلام الجاحظ حتى إنه كان يقول : رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضا عن نعيمها . وكان من أصحاب أبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي

(٢) هو أبو حنيفة احمد بن داود بن ونند الدينوري . كان قيما بعلوم شتى ، وقد نال شهرة واسعة بكتابه الذي ألفه في النباتات . وكان من نوادر الرجال الذين جمعوا بين آداب العرب ومعارف الأقدمين . مات سنة ٢٨٢ هـ

والثانى — أبو حنيفة الدينورى ، فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة و بيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم . وهذا كلامه فى « الأنواء » يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك . فأما كتابه فى « النبات » فكلامه فيه فى عُروض كلام أبدىٍّ بدوىٍّ ، وعلى طِباع أفصح عربى . ولقد قيل لى: إن له فى «القرآن» كتابا يبلغ ثلاثة عشر مجلدا ، ما رأيته ، وأنه ما سبق إلى ذلك النمط . هذا مع ورعه وزهده وجلالة قدره . وقد وقف الموفق[1] عليه وسأله [فيه] وتحفى به

والثالث — أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، فانه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر . ومن تصفح كلامه فى كتابه « أقسام العلوم » وفى كتابه « أخلاق الأمم » وفى كتابه « نظم القرآن » وفى كتابه « اختيار السيرة » وفى رسائله إلى إخوانه وجوابه يسأل عنه و يبده به ، علم أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ، وما رؤى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه . و إن القول فيه لكثير . ولو تناصرت إلينا أخبارهما لكنا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا إليه ، كما فعلت بأبى عثمان

وقال ياقوت : كان يقال : إتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلى بن عبيدة [2] وأبو زيد البلخى :

---

(١) هو أبو أحمد الموفق طلحة بن الخليفة جعفر المتوكل العباسى . كان صاحب الشأن الأعلى فى دولة أخيه المعتمد على الله ، وإليه المرجع فى كل الأمور ، ولولاه لاكتسح الزنج دولة آل العباس . مات سنة ٢٧٨ هـ

(٢) هو على بن عبيدة الريحانى الكاتب . كان حاد الذكاء قوى الفطنة وكان من خاصة المأمون ، بليغا فصيحا له تأليف على منهج الحكماء .

فمنهم من يزيد لفظه على معناه ؛ وهو الجاحظ

ومنهم من يزيد معناه على لفظه ، وهو على بن عبيدة

ومنهم من توافق لفظه ومعناه ، وهو أبو زيد

مع أن ياقوت روى أيضا أنه كان يقال لأبى زيد « جاحظ خراسان »

وكفى جلالة وفخرا للجاحظ أن ينسب إليه أبو زيد البلخى

وكان الأستاذ الرئيس أبو الفضل ابن العميد من العجبين بالجاحظ ، المولعين به ولعا شديدا ، المقدرين له تقديرا صحيحا ، المتوفرين على كتبه ومصنفاته ، المغترفين من بحار علومه وآدابه ، المذهبين مذهبه فى أسلوبه وكتابته ، حتى لقد كان يعجبه أن يلقب « بالجاحظ الثانى » وكان من عظم تقديره له ، وامتلاء صدره بجلالته وفضله ، إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلوم ومصطنعى الآداب وأراد امتحان عقله سأله عن :

(١) بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وتنبه لمحاسنها ، وأثنى عليها . جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله . ثم سأله عن :

(٢) الجاحظ ، فإن وجد لديه أثرا لمطالعة كتبه ، والاقتباس من نوره ، والاغتراف فى بحره ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بأنه غرة شادخة فى جبين أهل العلم والأدب . وإن وجده فاما لبغداد ، غفلا عما يجب أن يكون موسوما به من الانتساب إلى المعارف التى تخصص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شىء من المحاسن

وحدث أبو القاسم السيرافى فقال :

حضرنا مجلس الأستاذ أبى الفضل ابن العميد الوزير ، فجرى ذكر

ورماه بعضهم بالزندقة وليس كذلك بل كان من أفاضل المعتزلة . وقالوا إن له مؤلفات عدة أكثرها فى القصص والنوادر

الجاحظ ، فغض بعض الحاضرين منه وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت له : سَكَتَّ أيها الأستاذ عن هذا الرجل فى قوله ، مع عادتك فى الرد على أمثاله ؟ ! فقال : لم أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته و بينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك إنسانا يا أبا القاسم ، فَكُتُبُ الجاحظ تُعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا ، ولم أستصلحه لذلك ؟ !

قلت : وهذا تصرف من ابن العميد غريب ، فقد ضن على هذا الرجل بالأرشاد إلى ما يُقوم عقله ويُرهف حد أدبه ! ولست أدرى إذا كان هذا من بواعث الحقد وعوامل الضغن ، أو كان من لؤم الطبع وخسة النجيزه ، أو من حوافز الغيرة على العلم والعمل على صيانته من الابتذال للسفلة والأوغاد !

وقال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس:

أما الفقه ، فعلى أبى حنيفة [1] لأنه دَوَّنَ وَخَلَّدَ ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيرا إليه ، ومخبرا عنه

وأما الكلام ، فعلى أبى الهذيل العلاف [2]

وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، فعلى أبى عثمان الجاحظ

ومن طريف ما يروى فى هذا الباب ما تحدث به أبو محمد الحسن بن عمرو النجيرمى قال :

---

(١) هو الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت، شيخ العراقيين، وواضع مذهب أهل الرأى ، والداعى إلى القياس فى الشرع . وهو أشهر من أن يعرف . مات سنة ١٥٠ هـ

(٢) هو أبو الهذيل العلاف البصرى . كان من أكابر المعتزلة وأفاضل أهل الكلام . صاحب علم ونظر ومقالات وجدل، واسع الاطلاع على كتب الأقدمين فى المنطق والفلسفة وغيرهما . وقد ترجمناه فى كتابنا «شيوخ المعتزلة ومذاهبهم» الذى سنصدره قريبا إن شاء الله تعالى

كنت بالأندلس ، فقيل لى : إن ههنا تلميذا لأبى عثمان الجاحظ ، يعرف بِسَلَّامِ بن يزيد ، ويكنى أبا خَلَفٍ . فأتيته فرأيت شيخا هِمًّا ، فسألته عن سبب اجتماعه مع أبى عثمان ، ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس ؟ فقال :

كان طالب العلم بالمشرق يَشْرُفُ عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان . فوقع إلينا كتاب «التربيع والتدوير» له ، فأشاروا إليه . ثم أردفه عندنا كتاب « البيان والتبيين» له ، فبلغ الرجل الصُّكاك[1] بهذين الكتابين . قال : فخرجت لأعرج على شىء ، حتى قصدت بغداد ، فسألت عنه ، فقيل لى : هو بِسُرَّ مَنْ رَأى . فأصعدت إليها ، فقيل لى : قد انحدر إلى البصرة . فانحدرت إليها ، وسألت عن منزله فأُرشدت ودخلت إليه ، فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبيا ليس فيهم ذو لحية غيره . فَدُهِشْتُ . فقلت : أيكم أبو عثمان ؟ فرفع يده وحركها فى وجهى . وقال :

من أين ؟

قلت : من الأندلس

فقال : طِينَةٌ حمقاء . فما الإسم ؟

قلت : سَلَّام

فقال : إسم كلب القراد . إبن من ؟

فقلت : إبن يزيد

فقال : بحق ماصرت! أبو من ؟

فقلت : أبو خلف

فقال : كنية قرد زُبَيْدَةَ . ما جئت تطلب ؟

---

(١) الصكاك : عنان السماء

فقلت : العلم

فقال : إرجع بوقتٍ فإنك لا تفلح

فقلت له : ما أنصفتنى ! فقد اشتملت على خصال أربع : جفاء البلدية، وبعد الشقة ، وغِرة الحداثة ، ودهشة الداخل

فقال : فترى حولى عشرين صبيا ليس فيهم ذو لحية غيرى ، كان يجب أن تعرفنى بها ! !

قال : فأقمت عليه عشرين سنة

قلت : ولقد أصاب الجاحظ فيما وصف به إقليم الأندلس من أنه طينة حمقاء ، فانه لم يكن له قبل دخول العرب اليه تاريخ يعتد به ويشرف المنتسب إليه ، ولا عرفت له مدنية يصح ذكرها ، ولا حضارة باد أثرها ، وهؤلاء العرب حينما افتتحوه حملوا إليه عقولا وافرة ، وأذهانا صافية ، وعلوما صالحة وحضارة نافعة ، وهمة متوثبة . وفى الحق أنهم حملوا إليه جراثيم الحياة وأصول العمران ، ونهضوا به نهوضا لفت الأنظار إليه . وأمال الأعناق نحوه . وأثلوا فى ربوعه قواعد المدنية ، وأقروا فى أنحائه أركان الحضارة ومعالم الانسانية . فلما تراخى بهم الزمن ، وتناءت بهم الأيام ، تغلب طبعه عليهم وثارت ثائرة رعونته فيهم ، وحمقه عليهم ، فسلب منهم روح الهمة ، وأضعف فيهم قوة العزيمة ، وأزاح عنهم عوامل النشاط ، وأخذ بمخنقهم فأخضعهم لسلطان الضعف والإنحلال ، وشاعت فيهم شوائع الحماقة وذرائع الجهالة . وما زالت بواعث الاضمحلال تعمل فيهم حتى جاءهم من هم أشد منهم حمقا وأعرق منهم رعونة . فانتزعوه منهم رغم أنوفهم .

وهل فى الوجود أشد حمقاً من الاسبان ؟ ! هاهم فى رقعتهم من الأرض طوال هذا الزمن ، وقد نهضت من حولهم كافة العناصر الأوربية ،

وتحركت سائر الشعوب حتى البربر منها إلى الحياة المرموقة ، والعزة الموموقة ، وهم هم مايزالون من أهل القرون الوسطى فى نوع تعقلهم وطرق تفكيرهم . ولولا أنهم يدينون بما تدين به الممالك الأوربية لسيرت عليهم أساطيلها ، ولجيشت نحوهم جيوشها ، ولبعثت فى آفاقهم أسراب طياراتها ، ولاكتسحتهم وألقت بهم فى قاع اليم منذ دهر . فوصف الجاحظ لإقليم الأندلس بأنه طينة حمقاء ، قد أقره الزمن ، وصدقته الأيام

ومدحه أبو اسحق النظام بقوله[1]:

حُبِّى لِعَمْرٍو جَوْهَرٌ ثابتٌ وحُبُّهُ لى عَرَضٌ زائلُ
جِهاتِى السِّتُّ مشغولةٌ وَهْوَ إلى غيْرى بها مائلُ

---

(١) قد سرق هذين البيتين «ابن التلميذ الطبيب» وهو من الاطباء الشعراء البلغاء — وكان خاصا بالخليفة المقتفى . توفى سنة ٥٦٠هـ — وجعلهما فى ولده سعيد فقال :

حبى سعيد جوهر ثابت وحبه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة وهو إلى غيرى بها مائل

الفصل الحادي عشر

في

شهرة مصنفاته في الآفاق

لعله لم يُعرف كاتب في العربية، لاقت مؤلفاته من واسع الشهرة وفائق الذيوع، مالاقت كتب الجاحظ، على كثرتها وتنوع المقاصد والأغراض فيها، ومن المعروف أنه كان كلما وضع كتابا أو رسالة تهافت الناس على كَتْبِها ونَسخها وتداولها فيما بينهم، وبادروا إلى الحرص على حفظها واستظهارها كأثمن ما يحرص الانسان عليه من نفائس الأشياء. وكانت مجالس العلماء ومحافل الأدباء، في الأقطار العربية، لاتكاد تخلو من ذكر الجاحظ ومصنفاته، والنظر في آرائه ومعانيه وصنوف بلاغاته، بالأخذ والرد والجذب والدفع. وقلما سقط له كتاب في بلد أو في مصر إلا أقبل الناس على دراسته، وإلا اتخذوا منه مدرسة يتخرجون فيها في ضروب من الآداب وألوان من الجدل والنظر والكلام.

ومن أكبر الدلائل على ذلك ما رواه أبو حيان التوحيدي قال: ومن عجيب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى النحوي[1] الشيخ

(١) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرماني. وكان يعرف بالأخشيدي وبالوراق، لكن الشهرة بالرماني هي الغالبة. كان أحد مشاهير الأئمة في مختلف العلوم؛ وكان متكلما على مذهب المعتزلة أهل العدل والتوحيد. قال أبو حيان: لم ير مثله قط بلا تقية ولا تحاش ولا اشمئزاز ولا استيحاش علما بالنحو، وغزارة في الكلام. وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص، وإيضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة.

الصالح ، قال سمعت ابن الاخشيد شيخنا أبا بكر يقول :

ذكر أبو عثمان فى أول كتاب « الحيوان » أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست . ومرتبى فى جملتها كتاب « الفرق بين النبي والمتنبي » وكتاب « دلائل النبوة » وقد ذكرهما هكذا على التفرقة ، وأعاد ذكر « الفرق » فى الجزء الرابع لشيء دعاه إليه . فأحببت أن أرى الكتابين ، ولم أقدر إلا على واحد منهما ، وهو كتاب « دلائل النبوة » وربما لقب « بالفرق » خطأً . فهمنى ذلك وساءنى سوء ظفرى به . فلما شخصت من مصر ودخلت مكة — حرسها الله تعالى — حاجا أقمت مناديا بعرفات ينادى — والناس حضور من الآفاق على اختلاف بُلدانهم ، وتنازح أوطانهم ، وتباين قبائلهم وأجناسهم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن مهب الشمال الى مهب الجنوب ، وهو المنظر الذى لايشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب « الفرق بين النبي والمتنبي » لأبى عثمان الجاحظ ، على أى وجه كان . قال : فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال : حجت الناس مِنًى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به

قال ابن الأخشيد : و إنما أردت بهذا أن أبلغ نفسى عذرها

وقد علق ياقوت مدون هذا الخبر عليه بقوله : وحسبك بها فضيلة لأبى عثمان أن يكون مثل ابن الأخشيد — وهو هو فى معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة — يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . وهذا الكتاب موجود فى أيدى الناس اليوم لاتكاد تخلو خزانة منه . ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخة أو أكثر

وعفاف ونظافة . وله ذكر كثير فى كتاب المقابسات . ولد سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٣٨٤ هـ

ومن أشف وأطرف ما روى فى هذا الباب ما تحدث به ابن مِقْسَم[1] قال : قيل لأبى هَفَّان — وقد طال ذكر الجاحظ له — : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟

فقال : أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة !

ومن المفاخر التى استأثر بها الجاحظ فى كتبه ماقرره القاضى الفاضل[2] فى كلام له حيث قال : أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحاره ، وشن [عليها] الغاره ، وخرج على كتفه منها كاره

ومثل القاضى الفاضل لايستهان بقوله . ولا يزرى على اعترافه الصادق وهو سيد كتاب العربية فى عصره ، وشيخ ساسة الدولة الايوبية على عهد صلاح الدين . فهو يقرر أن جمهرة الكتاب من عهد الجاحظ حتى عهده انتفعوا بكتب الجاحظ وتحرجوا بها واستفادوا منها ، وكانت لهم على عباراتها ومعانيها ومختلف أغراضها غارات وسطوات يحلون بأسلابها مايضعون من

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن العطار . عرف « بابن مقسم » كان من القراء والنحاة . عالما بالعربية حافظا للغة وقد أخذ بالشذوذ فى بعض قراءاته . وقد ذكروا له مصنفات عدة . كان مولده سنة ٢٦٥ هـ وتوفى سنة ٣٥٥ هـ

(٢) هو أبو على عبد الرحيم القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى وصاحب تدبيره ورأس ساسته . وكان أبلغ أهل زمانه قلما ، وأفصحهم لسانا ، وأحدهم ذهنا ، كاتبا بينا ، وشاعرا محسنا ، وسائسا داهيا ، ومدبرا عاقلا ، شد أركان الدولة الايوبية ونهض بأعبائها واضطلع بشؤونها على خير الوجوه . وله أحداث وأخبار ونوادر مما يتزين به الأدب وتلقح به الاذهان . ولد بعسقلان سنة ٥٢٩ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ هـ

كتب ، وماينشئون من رسائل ، وما يصنفون من أسفار

قلت : وكان أهل البصرة يفاخرون أهل الكوفة بمؤلفات رجالهم ، وأهل الكوفة يفاخرون أهل البصرة بمثلهم فى ذلك أيضا . ففى رواية أبى بكر الخطيب البغدادى أن البصريين فاخروا الكوفيين بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل . وفاخر الكوفيون البصريين بكتاب محمد بن الحسن (صاحب أبى حنيفة) عمله فى سبع وعشرين ألف مسألة قياسية عقلية فى الحلال والحرام لا يسع الناس جهلها ، وكتاب المعانى للفراء ، وكتاب المصادر فى القرآن ، وكتاب الوقف والابتداء فيه ، سوى باقى الحدود . قالوا : ولنا واحد أملى من الأخبار مثل كل كتاب ألف البصريون ، وهو ابن الأعرابى ، وكان أوحد الناس فى اللغة

وقال أبو القاسم الاسكافى : استظهارى على البلاغة بثلاثة : القرآن ، وكلام الجاحظ ، وشعر البحترى [1]

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدى ابن دريد [2] فقال : هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هى ؟ قال : كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ، ونوادر أبى العيناء

وقال أبو محمد الأندلسى : رضيت فى الجملة بكتب الجاحظ عن قيمها

---

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الشاعر المشهور الغنى بشهرته وبعد صيته عن الوصف والتعريف . ولد سنة ٢٠٣ هـ وتوفى سنة ٢٨٤ هـ

(٢) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى عالم الشعراء وشاعر العلماء الأديب الفاضل صاحب التصانيف الفائقة والمؤلفات البارعة فى فنون اللغة والأدب . توفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ

الفصل الثانى عشر

فى

تحقيقه للعلم ووفوده على مصر

ما أحسب العالم جديرا بسمة هذا الاسم الشريف إلا إذا قام علمه على أساس متين من البحث والتحقيق، ونهض على دعامة صحيحة من الاستقراء والتمحيص. كذلك لا أرى الأديب حقيقا باسم الأدب إلا إذا شاد أركان أدبه على قواعد من الحفظ وسعة الرواية وبسطة الإطلاع وكثرة الافتنان، وجعل قوامه الذوق السليم. وقد أثبتت الدلائل وقامت البرهانات وتكافأت الحجج التى يخطئها العد على أن الجاحظ كان فرد زمانه فى الأدب، بل كان واحد الدهر فى سائر فنونه ومتنوع ألوانه، غير أنى لم أكد أعثر على كاتب فى قديم الزمن وحديثه ممن عرض لبسط حياته والكتابة عنه قد أشار إلى أنه كان ممن يعنى بالمسائل العلمية على طريق أهل البحث والنظر وعلى سبيل أصحاب الاستقراء وقفو الأثر، أو أنه رحل إلى الآفاق لاجراء تجارب فى علم الحيوان أو غيره من الشؤون التى أرسل قلمه فى بسطها وإيضاحها، وكد ذهنه فى الإبانة عنها والإفصاح عن أسبابها وعللها. وكان المفهوم أنه فى كتابه « الحيوان » قد جعل أكبر اعتماده فى تأليفه على ما كتبه العلماء الأقدمون أمثال أرسطو[1] وغيره، يمازج ذلك بعض ما نقل

(١) هو ارسطاليس بن نيقوماخوس. أعظم فلاسفة القدم صاحب الفضل الاكبر على الانسانية فى ضبط علومها وتحرير عقولها. ولد فى إسطاغيرا من بلاد مقدونية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد. وتوفى بمدينة خلكس حاضرة جزيرة بوبيا سنة ٣٢٢ قبل الميلاد

من المشاهدات المأثورة عن العرب القدماء ، والتي روى أنهم تناقلوها من قول أو إشارة أو شعر أو مثل أو حكاية أو أسطورة . ولكنني تقريت فيما وقفت عليه من شؤونه وأحواله أنه كان عالما محققا بحاثا منقبا مستقرئا منقرا بكل ماتتسع له هذه الالفاظ من معان وأغراض

فقدوقفت له ، فيما وقفت عليه أثناء مطالعاتي ، على بحث رد فيه نسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصواب ، وأقره في نصاب الحق الصراح ، وأزال عنه شبه النسابين الذين شابوا بياضه الناصع بسواد جهالاتهم . ذلك أن الرواة تناقلوا عن الزبير بن بكار [1] أنه كان يزعم أن أم النضر بن كنانة ابن خزيمة إسمها بُرة بنت مر بن أد بن طابخة ، وأن كنانة تزوجها بعد موت أبيه خزيمة فولدت له النضر — على عادة أهل الجاهلية من تزوج الابن الأكبر زوجة أبيه بعد موته إذا كان الولد من غيرها [2] — أما أبو عثمان

---

(١) هو أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير . له في الأخبار ورواية الانساب باع طويل. وله شعر جيد ، وكان نبيل القدر ولي قضاء مكة ودخل بغداد مرارا وألف كتبا كثيرة . وتوفي بمكة وهو قاض عليها عن اربع وثمانين من عمره سنة ٢٥٦ هـ

(٢) ومن الغريب أن كثيرا من المتسمين بسمة العلم قد خدعوا بهذه الرواية الخاطئة ولم يكلفوا أنفسهم شيئاً من عناء تحقيقها حتى ولا الشك في صحتها ، ومن هؤلاء أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي الاندلسي صاحب الروض الانف في شرح السيرة النبوية والمتوفى سنة ٥٨١ هـ فانه عند كلامه على قوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » . قال ولذلك لم يستثن الله تعالى غير ذلك من المحرمات بقوله « إلا ماقد سلف » وغير الجمع بين الاختين . ولم يقل في الزنا ولا القتل إلا ما قد سلف . إذ كان الجمع بين الاختين شريعة لمن قبلنا ، ونقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال :

الجاحظ فقد دحض هذا الافتراء والقول الهراء فقال : وخلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته ، وهى بُرة بنت أد بن طابخة، جد كنانة بن خزيمة، ولم تلد لكنانة ولداً ذكراً ولا أنثى، ولكن كانت ابنة أخيها بُرة بنت مر بن أد بن طابخة تحت كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة: قال : وانما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف أباه على زوجته لاتفاق اسمهما وتقارب نسبهما . وهذا هو الصحيح الذى عليه مشايخنا وأهل العلم والنسب . قال : ومعاذ الله أن يكون أصاب نسب النبى صلى الله عليه وسلم نكاح مقت وقد قال صلى الله عليه وسلم : مازلت أخرج من نكاح كنكاح الاسلام حتى خرجت من أبى وأمى . قال الجاحظ : ومن اعتقد غير هذا فقد كفر، والحمد لله الذى نزهه عن كل وصمة وطهره تطهيرا .

قلت : وهذا مما يرجى به المثوبة للجاحظ يوم الجزاء الأكبر

وفى سبيل التحقيق العلمى رحل الجاحظ إلى بعض الأمصار ، فقد وقفت فى كتاب الحيوان على أنه وفد على مصر وأقام بها زمنا وأجرى بها اختبارات فيما عثر عليه من حيوانها ، فقد لاحظت أنه تكلم عن النمس كلام محقق مختبر مشاهد . ومن العجب أن الجلال[1] السيوطى لم يذكره فيمن وفد

وفائدة الاستثناء احترام نسبه عليه الصلاة والسلام إذ ليس فى نسبه الكريم نكاح سفاح . وقد كنا فى غير حاجة إلى هذا التعليل السخيف والتخريج المتكلف مادام قد ثبت أن شيئاً من ذلك لم يكن كما حققه الجاحظ

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشهير . قال ابن إياس : بلغت مؤلفاته ستمائة مؤلف . توفى بالقاهرة سنة ٩١١ هـ فى عهد السلطان الغورى ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة . وقد أزارنى هذا القبر الاستاذ حفنى ناصف بك رحمه الله منذ عشرين سنة

على مصر من صنوف أهل العلم وأرباب المعارف فى كتابه « حسن المحاضرة » ولعل الذى دفعه إلى إغفاله تعصبه على أهل العلم من المعتزلة حتى أنه لم يقرأ من كتب الجاحظ شيئاً ولا عنى بما اختص به من علوم وفنون وآداب ، وإلا لظهر أثر ذلك فيما ألف من كتب وصنف من أسفار

ومن آيات تحقيقه عنايته بالوضع اللغوى وتسمية مالم يكن معروفا عند العرب من الأشياء بأسماء خالصة من الشذوذ ، سليمة من التنافر . فقد عن لى أن أبحث فى القواميس العربية ودواوين اللغة عن اسم لذلك اللحم الذى فى أجواف الأصداف البحرية والمحار فلم أجد له أثراً ولا وقفت له على خبر. وبينا أقلب بين دفتى كتاب « الحيوان » عثرت له على اسم هو من أرق الأسماء وألطفها وأخفها على اللسان . وذلك الاسم هو « اللَّبَلُ » وإذا كانت القواميس وكتب اللغة قد خلت من هذا الاسم فإن كتب الاشتقاق لم تعرض له طبعا . ولست أدرى إذا كان هذا اللفظ نقل عن اللغات الأجنبية التى كانت معروفة إلى ذلك العهد ، أم أن الجاحظ تلقفه من أفواه البحريين ، أو أنه وضعه من عند نفسه وضعا . وعلى أى حال فالجاحظ فى ذلك الحجة التى لا تدفع والثقة التى لا ترد ، ومن جعل الجاحظ بينه وبين الله فى تحقيق اللغة والأدب وأساليب البلاغة والبيان فقد أمن العثار . وله فى هذا الباب الشىء الكثير اكتفينا منه بهذا النموذج

الفصل الثالث عشر

فى

الترجمة وأساليبها ورأى الجاحظ فيها وفى النقلة

قلت فيما مضى أن الجاحظ لم يترك كتابا نقل إلى العربية حتى عهده، من أى لغة كانت ، وفى أى علم أو فن ، إلا قرأه واستظهره وتمثله ، أو كما يقولون « هضمه » ومن البين أن الكتب المنقولة عن اللغات المعروفة فى ذلك العهد إلى اللغة العربية ، كانت تَزْخَرُ بها عواصم الممالك الاسلامية ومدنها فى الشرق والغرب ، بالرغم من أنه لم تكن هناك مطابع تقرب إلى الناس تناولها ، وتسهل على الطلاب تداولها ، بل كان الاعتماد كل الاعتماد فى الحصول عليها، محصوراً فى صناعة النسخ وتحت سلطان الوراقين . وأنت خبير بما يتطلب ذلك من باهظ التكاليف ، وما يقتضيه من ارتفاع الأجور وغلاء الأسعار

وقد وقفت للجاحظ ، فيما ترجم من كتب العلوم فى عهده إلى العربية، على رأى غاية فى السداد والحكمة ، وهو يحل لنا مشكلا حار فيه العلماء والمفكرون عند ما رأوا التباين الظاهر الذى وقع فى الشروح والحواشى والتعليقات والتفاسير والتأويلات التى وضعها أهل البحث وأرباب النظر أمثال الفارابى[1]

(١) هو أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى . الحكيم المشهور، صاحب التصانيف الفائقة فى المنطق والفلسفة وسائر العلوم القديمة . مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ

وابن سينا[١] وابن رشد[٢] والغزالى[٣] على كتب سقراط، وأفلاطون[٤] وفيثا غورس[٥] وأرسطو، وبقراط[٦] وجالينوس[٧] وغيرهم من كبار الفلاسفة والحكماء الأقدمين ؛ مما جعل علماء هذا العصر يشكُّون فى صحة ترجمة تلك الكتب ،ولا يرونها نقلت إلينا علومهم على الصحة والصواب

---

(١) هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على ابن سينا . العالم الفيلسوف المنطق الطبيب اللغوى الأديب المشهور . ولد فى قرية من قرى بخارى تسمى أفشنة سنة ٣٧٥ هـ وتوفى بهمذان سنة ٤٢٨ هـ

(٢) هو أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد القاضى العالم المعروف . كان واحد زمانه فى الفقه والجدل والخلاف والفلسفة والطب والمنطق ، فاضلا فى سائر العلوم . وكان مجلسه بجامع إشبيلية ثم بجامع قرطبة يختلف إليه طلاب العلم من أقاصى البلاد ، ومن سائر أرباب الملل والنحل ، وتخرج به خلق من اليهود والنصارى فضلا عن المسلمين . وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى المعروف بحجة الاسلام . كان علامة زمانه فى الفقه والجدل والمنطق وما إليها ، وروى له شعر . ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفى بطوس سنة ٥٠٥ هـ

(٤) هو أفلاطون الفيلسوف اليونانى الشهير . كان من أشهر فلاسفة القدم ومن أكابر أعلام الدهر الأول . وهو من سلالة ملوك أثينا . ولد ببلاد اليونان سنة ٤٢٧ قبل الميلاد، وتوفى سنة ٣٤٦ قبل الميلاد

(٥) هو فيثاغورس الحكيم المشهور أحد أكابر الفلاسفة الأقدمين من اليونان . وهو تلميذ علماء مصر فى الهندسة والطبيعة والآلهيات . ولفيثاغورس وافلاطون وأرسطو شأن كبير فى الفلسفة الاسلامية

(٦) هو بقراط بن هيراكليدس . طبيب طبيعى مشهور وكان يلقب « أبا الطب » . وهو من أكابر علماء اليونان وحكمائهم ولد بجزيرة كوس سنة ٤٦٠ قبل الميلاد ومات بمدينة لاريسا فى منتصف القرن الرابع

(٧) هو جالينوس . طبيب طبيعى مشهور . من أكابر علماء اليونان . وحكمائهم . وكان موجودا فى سنة ٢٠٠ ميلادية

وقبل أن نعرض عليك هذا الرأى نقف بك على ما كان متبعاً فى ذلك العهد من طرق الترجمة وأساليب النقل ومناهج النقلة والمترجمين — ملخصاً عن الصلاح الصفدى — فنقول :

كان للنقلة والتراجمة فى ذلك الحين طريقان :

الأول — طريق يوحنا بن البطريق [١] وابن ناعمة الحمصى [٢] وفرقتهما — وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى كل لفظة مفردة من الكلمات اليونانية ، أو غيرها من اللغات الأخرى ، وما تدل عليه من معنى، فيأتون بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها فى الدلالة على ذلك المعنى، فيضعونها فى مكانها ، ثم ينتقلون إلى غيرها . وهكذا حتى ينتهى نقل الكتاب على هذه الصورة . ولا شك أن هذه الطريقة عقيمة جداً ، ومن الرداءة فى أقصى حد . لأن الناقل قد يضطره عدم إحاطته باللغة العربية ، وعدم وقوفه على سائر مفرداتها التى تقابل الكلمات الأعجمية ، إلى ترك الكثير من هذه الكلمات كما هى على عُجمتها . وهنا يصبح الكتاب لا هو بالعربى ، ولا هو بالعجمى . وقد وقع من جراء هذه الترجمة خلل كثير فيما ترجم من الكتب على هذه الطريقة ، وظلت فيها أكثر الكلمات اليونانية ، أو الفارسية ، أو الهندية ، أو السريانية ، أو اللاتينية على حالها . هذا فضلا عن أن خواص التراكيب والنسب الإسنادية فى أى لغة كثيراً ما لا يتفق مع

---

(١) هو يوحنا أو يحيى بن البطريق : كان قيما بلغة الروم اللاتينية ، عاجزا عن معرفة العربية ، وكان فى خاصة الحسن بن سهل

(٢) هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى المعروف بابن ناعمه . كان من رجال الترجمة والنقل، متوسط الجودة

مافى أى لغة أخرى من هذه الخواص . بل ما يقع من الخلل عند استعمال المجازات ومرامى الإستعارات

الثانى — طريق حنين بن إسحق[١] والعباس بن سعيد الجوهرى[٢] مولى المأمون ، وغيرهما ممن نحا نحوهما — وذلك أن يقرأ الناقل جملة الكلام فيحصل معناها فى ذهنه ويعبر عنها من اللغة العربية بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ الألفاظ ، أم خالفتها . وهذه الطريقة أجود من غيرها بلا مراء . ولهذا قالوا : إن كتب حنين بن إسحق لم تحتج إلى تهذيب إلا فى العلوم الرياضية ، لأنه لم يكن فيها بها ، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والإلهى ، فإن ما عربه منها لم يحتج إلى إصلاح . أما أقليدس[٣] فقد ذكروا أن ثابت بن قُرَّةَ الحرَّانى هذبه ، وكذلك المجسطى والمتوسطات بينهما

---

(١) هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادى . كان طبيبا بارعا عالما بعلوم الأوائل . وكان فصيحا لسنا بليغا يقول الشعر إذا شاء . وناهيك بمن يكون أستاذه الخليل بن احمد . وقد نقل الى اللغة العربية كثيرا من الكتب القديمة لأنه كان يجيد اليونانية والسريانية والرومية (اللاتينية) وكان بعض الخلفاء يعطيه أجر النقل زنة الكتاب ذهبا . وخدم المتوكل فى الطب . مات سنة ٢٦٠ هـ

(٢) هو العباس بن سعيد الجوهرى . كان فلكيا منجما عالما بالأرصاد وآلاتها . وكان فى صحبة المأمون وهو مولاه . وهو الذى ندبه المأمون فى جماعة من أصحابه لاجراء الرصد . وله فى ذلك زيج مشهور . وكان من أكابر المهندسين والحساب

(٣) هو اقليدس الصورى . كان أوحد أهل زمانه فى معرفة علم الهندسة والحساب وهو من أكابر الفلسفة الرياضيين . والمقصود هنا اسم كتاب له

هذان هما طريقا النقل والترجمة فى تلك العصور .

أما رأى الجاحظ الذى وعدناك بإيراده فاليك هو . قال أبو عثمان :

إن الترجمان لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجرى ، وكيف يقدر على أدائها ، وتسليم معانيها ، والإخبار عنها ، على حقها وصدقها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ... ! ؟

فمتى كان ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قُرة [١] وابن فهريز [٢] وابن وهيلى ، وابن المقفع : مثل أرسطو ؟ ومتى كان خالد [٣] مثل أفلاطون . . . ! ؟

ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفة . وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول [عنها] والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية

---

(١) الظاهر أن المقصود به هو أبو على ابن أبى قرة ، وكان هذا منجما للعلوى البصرى صاحب الزنج الخارج على الدولة العباسية . ثم وقع أسيرا فى يد الموفق فاستبقاه وصار فى جملته وعمل كتابا فى علة كسوف الشمس والقمر

(٢) لعل المقصود هنا هو حبيب بن فهريز ، وكان يلقب عبديشوع ، وكان مطرانا للموصل . عرب كتبا كثيرة للمأمون . وكانت بينه وبين جبرائل ابن بختيشوع صداقة ومودة ، وكان ينقل له الكتب . وقد ذكر الجاحظ ابن فهريز هذا فى كتابه « البيان والتبيين » المطبوع بشرحنا فى ص ٩٦ ج ١ فانظره هناك

(٣) هو خالد بن عبد الملك المروزى . كان من أكابر المنجمين فى عهد المأمون وكان من خاصة منجمى الدولة . وله زيج حاز شهرة واسعة فى العصر الأول

ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها . وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ؟ وإنما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات

وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطئ فيه . ولن تجد البتة مترجما يفى بواحد من هؤلاء العلماء

هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون . فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه مما لا يجوز عليه ، حتى يريد أن يتكلم على صحيح المعانى فى الطبائع ، ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى مما لا يجوز ، وبما يجوز على الناس مما لا يجوز . وحتى يعلم مستقر العام والخاص والمقابلات التى تلقى الأخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية . وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذى هو أثر ، مما يخصه الخبر الذى هو قرآن ، وما يخصه العقل مما تخصه العادة ، أو الحال الرادّة له على العموم . وحتى يعرف الصدق والكذب ، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع ، وعند فقد أى معنى ينقلب ذلك الاسم . وكذلك معرفة المحال من الصحيح ، وأى شىء تأويل المحال ، وهل يسمى المحال كذبا أم لا يجوز ذلك ؟ وأى القولين أفحش : المحال أم الكذب ؟ وفى أى موضع يكون المحال أفظع والكذب أشنع ؟ وحتى يعرف المثل والبديع والوحى والكناية ، وفصل ما بين الخطل والهذر والمقصور والمبسوط والاختصار . وحتى يعرف أبنية الكلام ، وعادات القوم ، وأسباب تفاهمهم .

والذى ذكرنا قليل من كثير ؛ ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ فى تأويل كلام الدين . والخطأ فى الدين أضر من الخطأ فى رياضة والصنعة والفلسفة والكيمياء ، وفى بعض المعيشة التى يعيش بها بنو آدم .

وإذا كان للمترجم الذى قد ترجم لا يكمل لذلك أخطأ على قدر نقصانه من الكمال . وما علم المترجم بالدليل من شبه الدليل ؟ وما علمه بالاخبار النجومية ؟ وما علمه بالحدود الحقيقية ، وما علمه بإصلاح سقطات الكلام وإسقاط النساخين للكتب ؟ وما علمه ببعض الخطوطة لبعض المقدمات ؟!

وقد علمنا أن المقدمات لابد أن تكون اضطرارية ، ولابد أن تكون مرتبة وكالخط المنثور . وابن البطريق وأبوقرة لا يفهمان هذا موصوفا منزلا ومرتبا منفصلا ، من معلم رقيق ، ومن حاذق طب ! فكيف بكتاب قد تداولته اللغات ، واختلاف الأقلام ، وأجناس خطوط الملل والأمم ؟ ! ولو كانت الخالق بلسان اليونانية يرمى إلى الخالق بلسان العربية ، ثم كان العربى مقصرا عن مقدار بلاغة اليونانى لم يجد المعنى . والناقل التقصير ، ولم يجد اليونانى الذى لم يرض بمقدار بلاغته فى لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز . . . . ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حُر اللفظ وشريف المعانى أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام ! فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب ؟ !

قلت : هذا كلام الجاحظ ، وهذا رأيه فى توجيه كتب العلوم وأسفار الأديان ، وهذا قوله فى التراجمة والنقلة القدماء ، قد أوضح به السبيل ، وأنار الطريق ، وأرسل به شعاعاً من صادق رأيه ومحكم القول وبديع

النظر وفائق الفكر ، على أمر غير العالم الاسلامى طوال هذا الدهر على غير بينة منه . فهل فى مقدور القائلين الآن بإمكان ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأوربية، الاستنارة به والاهتداء بهديه ؟ وهل فى استطاعة مخالفيهم والقائلين باستحالة ترجمته أن يستفيدوا مما جاء به من العلل والأسباب والدوافع والموانع ؟ وهل لكلا الفريقين تدبر هذا الكلام على حقه وصدقه ، حتى يمكن الاجماع على رأى حاسم فى هذا الأمر الجليل الشأن الكبير الخطر البعيد الأثر فى أهم شأن يخص العالم الاسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها ؟!

الفصل الرابع عشر

فى

نشوء الاعتزال فى الاسلام

قبل أن نعرض عليك مذهب الجاحظ فى الاعتزال ، نرى لزاماً علينا أن نبسط لك القول فى نشوء الاعتزال ، وأولية المعتزلة ، وكيف كان أصلها ومعناها ، وعلى يد من ثارت ثائرتها . فإن فى بسط هذا الموضوع إبانة لمذهب الجاحظ فيه ، وإيضاحاً لما اعتمده من رأى . ولذلك نقول :

لكل دين من الأديان التى ظهرت على وجه الأرض حالة تعرو القائمين عليه بعد ذهاب مؤسسه إلى حيث تنتهى حياة كل إنسان . فيتناول كل ذى رأى من هؤلاء الخالفين أصول هذا الدين وأسسه ويوجه إليها عنايته ، ويرسل عليها من أشعة عقله ، وبوائق تفكيره سواطع أنوار متدبراً معانيها ، مستشفاً مغازيها ، مفسراً الغوامض من عباراتها ، مقرباً البعيد من مرامى آياتها ، محاولا إيضاح المشكل من إشاراتها ، مأولا المشتبه من أغراضها ، مبيناً ما دق من ملتبسها . ولا يزال بها حتى يستخرج من خلالها أصولا يبنى عليها فروعا تقوم عنده مقام الدستور الواجب الاحترام . ثم هو لاينفك لهجا بها ، مكبا عليها بين بسط وقبض ، ورفع وخفض ، إلى أن يستوى له منها مذهب يعرف به ، ويدعو إليه ، وينتصر له ، وينزله منه منزلة العين من الإسم ، والذات من الرسم . لايكاد يخلو من هذه الحال دين من الأديان ، أو ينجو منها شرع من الشرائع ، سواء فى ذلك أديان السماء

وشرائع الأرض . ومن هنا كثرت المذاهب فى الأديان ، وتعددت الآراء فى الشرائع ، وتشعبت فيها الملل ، وتفرقت النحل .

ولم يتح للاسلام ، وهو آخر الأديان السماوية ، التخلص من هذه السنة الطبيعية ، سنة التحول والتطور والتشعب والتفرق . وكيف يمكن التخلص منها والانسان هو ذلك المخلوق المكون من مختلف العناصر ومتباين المواد ؟ لذلك أصيب الدين الاسلامى من هذه المذاهب بما ناء به ، وكاد يودى بروحه ، ويذهب ببهائه ، ويخرج به عن قواعده المتمكنة فى السماحة والسهولة ، والتى ما كان فى أحكامها لبس ولا غموض ولا إبهام .

ومن الغريب أن مدونى مذاهبه ، وكاتبى نحله ، حينما أولعوا بتقييد ماجد فيه من تنازع الآراء ، وما اعتوره من تجاذب الاهواء ، وما قام فيه بين أهل البحث والنظر ، وأصحاب السند والأثر ، من المجادلات والمهاترات ، أبوا إلا أن يقسموا الأمة حسب آراء بعض الأفراد من هؤلاء الى أقسام ، وأن يشعبوا هذه الأقسام الى فرق تتناحر ، ونحل تتجازر ، وأن يتلمسوا لذلك أصلا يعزونه الى الشارع الأعظم ، فابتدعوا حديثا رووه من طرق شتى زعموا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار الا واحدة ، وهى ما أنا عليه وأصحابى »

ولو صح هذا الحديث لكان نكبة كبرى على جمهور الأمة الاسلامية يذهب على غلبتها الجامعة الخلود فى الجحيم ! ولو صح هذا الحديث لما قام أبو بكر فى وجه مانعى الزكاة معتبرا إياهم فى حالة ردة ، يحاربهم عليها ، ويقاتلهم من أجلها ، ويستحل منهم ما هو محرم من كل مسلم . ومن يدرى !

فلعل أبو بكر لو لم ينهض لقتال أهل الردة نرأينا فى المؤرخين والكتاب من عدهم من الفرق الداخلة فى عداد الثلاث والسبعين فرقة ؟ ولعلهم كانوا سموهم « الزكاتية » لأنهم منعوا الزكاة كما عدوا من قاتلهم على وسموهم « الخوارج المحكمة » لأنهم قالوا « لا حكم إلا لله » ولو صح هذا الحديث لوجب على جمهور المسلمين أن لا يعرضوا بسوء لأى جماعة منهم تحاول التفرد عنهم برأى ، والتخصص دونهم بمذهب ، وأن لا يناشدوا هذه الجماعة الرجوع إليهم والدخول فى جملتهم ، تصديقاً لهذا الحديث وتعزيزاً له حتى يصل عدد الفرق إلى ما حدد لها فيه . ولو صح هذا الحديث لما نجا من الأمة أحد لأنه ما من فرقة من الفرق إلا ويكفر بعضها بعضاً ، ولم تسلم فرقة من المطاعن والمثالب والرمى بالإلحاد فى الدين ، وما من فرقة إلا وهى ترى لنفسها النجاة دون أخواتها . وكل حزب بما لديهم فرحون .

ومن أعجب العجب أن مؤرخى هذه المذاهب ، ومسجلى هاتيك الفرق ممن سلف ، تظالموا وراء هذا الحديث وأخذ كل منهم يسلسل فرقه على ما يرى ، ويولد بعضها من بعض ليصل بها الى العدد الذى حدد فيه ، غير مكلف نفسه البحث فى صحته أو فساده ، ولا مفكر فى انطباقه على العقل والطبع والنظر ، أو فى زيفه وبعده عن مطابقة الواقع ! وأشد من ذلك عجبا أن أحداً منهم لم يتحر النظر فى سلامة أجزائه ، وفى صحة دعائمه ، كأن يتعرف هل كان اليهود فى ذلك العهد إحدى وسبعين فرقة حقا ، وهل كان النصارى اثنتين وسبعين فرقة ؟ وكأن ينظر فيما سيأتى به الدهر الأطول من ظهور فرق ، ونبوغ مذاهب ، ونشوء فكر ، ونجوم آراء ! وهل هى داخلة فى هذا الحساب أم خارجة عنه ، مستقلة دونه ؟ وما منزلتها من هذه الفرق المحصورة العدد ؟ أم هل خمدت العقول ، ونضبت القرائح ، وتصدع الفلك ، وسلب الله من

سائر خلقه قوة البحث والنظر واعمال الفكر ، مصداقا لهذا القول وتعزيزا لهذا الأثر ؟ ! لاشك أن هذا مالا يقول به عاقل يجل قدرة الله فى أشرف مظاهرها وهو « العقل »

والمعتزلة — أو — القدرية — أو — أهل العدل والتوحيد — طائفة من أجل هذه الطوائف الاسلامية عقولا ، ومن أقواها نفوسا ، ومن أسدها تفكيرا . وكان لشيوخها قوة فى البيان ، و بسطة فى اللسان ، وشدة فى الجنان ، ولهم مواقف مشهورة فى الاسلام ضد مخالفيه يذودون عنه غاراتهم ، و يدفعون فى أقفيتهم بناصع الأدلة وواضح البرهان .

ظهرت هذه الطائفة فى أواخر القرن الأول للهجرة عند ما استفحل أمر « الأزارقة »[1] من الخوارج ، واشتدت شوكتهم بالبصرة والأهواز ، وأصبح أمرهم خطرا و بأسهم شديداً يهدد الدولة ، على عهد عبد الملك بن مروان[2] وولاية الحجاج بن يوسف العراقين ، ووقع الخلاف فى الناس فى شأن مرتكبى الذنوب ومجترحى الآثام من الأمة الاسلامية . فكل جماعة ارتأت رأيا ، وذهبت مذهبا ، وقالت قولا ، وعرضت بنظر .

---

(١) هم فرقة من الخوارج ، بل هم أكبر فرقة ظهرت منهم وأكثرها عددا وأشدها بأسا وأقواها منة . وهى تنتسب إلى نافع بن الأزرق الحنفى أحد عظمائهم . وكان ظهورهم فى عهد ابن الزبير فسير عليهم الجيوش فكانوا يهزمونها ثم سار اليهم المهلب بن أبى صفرة فهزمهم بعد خطوب فى وقعة دولاب بالاهواز . وفى هذه الوقعة مات نافع بن الأزرق وهو منهزم

(٢) هو عبد الملك بن مروان أحد أكابر ملوك بنى أمية ومؤسس دولة بنى مروان بالشام ، وكان من أعقل الناس وأحزمهم . وكان عهده كله حروب وفتن وأحداث وخطوب غير انه تغلب على هذا كله بالحزم وقوة البطش والاسراف فى إراقة الدماء إلى أن استقر له الملك. مات بدمشق سنة ٨٦ هـ عن ٦٢ سنة

فرأى « الأزارقة » من الخوارج أن كل مرتكب لذنب، صغيرا كان ذلك الذنب أو كبيرا، فهو مشرك بالله . وعندهم أن أطفال المشركين مشركون . ولذلك استحلوا قتل أطفال مخالفيهم وقتل نسائهم ، سواء أكانوا من أهل الاسلام أم كانوا من غيرهم .

ووافقتهم « الصُّفرية »[1] فى ذلك ، إلا أنهم خالفوهم فى الأطفال .

وذهب « النجدات »[2] من الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة ، التى أجمعت الأمة على تحريمها، مشرك كافر ، ومرتكب الذنب الذى اختلفت فيه الأمة ، حكمه وقف على اجتهاد أهل الفقه فيه .

ورأت « الأباضية »[3] من الخوارج أن مرتكب ما فيه الوعيد، مع معرفته بالله تعالى وبما جاء من عنده، كافر كفران نعمة ، وليس بكافر كفر شرك .

وذهب الحسن البصرى وجماعة معه إلى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة منافق .

وأما الجمهور فيرى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة، مؤمن . لاعتقاده بأن كل ما جاء من عند الله حق ، ولإيمانه بالرسل والكتب المنزلة ، غير أنه يعد فاسقا بكبيرته التى ارتكبها . على أن وصفه بالفسق ، لا ينفى عنه اسم الايمان والاسلام

وبينما الناس فى أمر من هذا الحال مريج، دخل رجل على الحسن البصرى

---

(١) هم فرقة من الخوارج تنسب إلى زياد بن الاصفر . ويعدون فى فروع الازارقة ، وإن كانوا فارقوهم فى بعض القول

(٢) هم فرقة من الخوارج تنسب إلى نجدة بن عامر الحنفى ، وكانوا باليمامة ثم إنهم افترقوا فيما بينهم إلى فرق كثيرة تسمى كلها النجدات

(٣) هم فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن إباض وعنها تفرعت عدة فرق

وهو فى مجلسه بمسجد البصرة فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهر فى زماننا هذا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج عن الملة — وهم وَعِيدِيَّةُ الخوارج — وجماعة يُرْجِئُون أصحاب الكبائر. بل العمل ، على مذهبهم ، ليس ركنا من الايمان . ويرون أنه لا يضر مع الايمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة — وهم المُرْجِئَةُ[1] — فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ؟ ففكر الحسن فى هذا السؤال مليا ، وقبل أن يجمع رأيه على قول يجيب به ، بادر واصل بن عطاء بالجواب وقال :

أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو فى « منزلة بين المنزلتين »

فغضب الحسن لتسرعه فى الجواب وجرأته فى الاجابة عنه . فقام واصل فى جماعة معه عن مجلسه وجلس بهم إلى اسطوانة بالمسجد . ثم أخذ يلقى عليهم رأيه ، ويلقنهم أسبابه وعلله ، ويقرر لهم مقدماته ونتائجه . غير أن الحسن لم يرضه مفارقة واصل له ، وكانت له فى نفسه مكانة ، فحاول مرضاته واسترجاعه إلى سابق مودته ، على أن يكون ذلك من طريق الاقناع ، فأرسل اليه للمناظرة فلما حضر فى رهط من صحبه انتدب له عمرو بن عبيد ، وكان من رؤس أصحابه ، وسأل الحسن واصلا أن يكلم عَمراً ؟

فقال واصل : لم قلتم : من أتى كبيرة من أهل القبلة استحق اسم النفاق ؟

فقال عمرو : لقول الله تعالى « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا

(١) هم قوم كانوا يقولون بالارجاء فى الايمان . وإنما سموا المرجئة لأنهم أرجأوا العمل عن الايمان . والارجاء فى اللغة: التأخير

وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ » فكأن كل فاسق منافق ، إذ كانت ألف المعرفة ولامها موجودتين فى الفاسق .

فقال واصل : أليس قد وجدت الله تعالى يقول « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ؟ وأجمع أهل العلم على أن صاحب الكبيرة من أهل القبلة استحق اسم ظالم كما استحق اسم فاسق ، فالاً كفرتم صاحب الكبيرة من أهل القبلة بقوله تعالى « وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ؟ فعرف بألف ولام التعريف اللتين فى قوله تعالى « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » كما قال فى القاذف « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ » فسميته منافقا لقوله تعالى « إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ » ... ؟! يا أبا عثمان ، أى ما أولى أن تستعمل فى أسماء المُحْدِثِينَ من أمتنا : ما اتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة ، أو ما اختلفوا فيه ؟!

فقال عمرو : بل ما اتفقوا عليه أولى !

فقال واصل : ألست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقا ويختلفون فيما عدا ذلك من أسمائه ؟ لأن الخوارج تسميه مشركا فاسقا ، والشيعة [1] — الزيدية — تسميه كافر نعمة فاسقا ، والحسن يسميه منافقا فاسقا ، والمرجئة تسميه مؤمنا فاسقا . فاجتمعوا على تسميته بالفسق واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه ، فالواجب أن يسمى بالاسم الذى اتفق

---

(١) الشيعة من شايعوا على بن أبى طالب وحصروا الفضل والسبق والاولوية فيه . وهم فرق . منهم الزيدية وهؤلاء ينسبون الى زيد بن على زين العابدين ، وهم من أفضل الشيعة وأنظفهم عقيدة حتى انك لاتكاد ترى فرقا بينهم وبين أهل السنة

المختلفون عليه، وهوالفسق . ولا يسمى بما عدا ذلك من الاسماء التى اختلفوا فيها .فهذا أشبه بأهل الدين ؟!

فقال عمرو : ما بينى و بين الحق عداوة ، والقول قولك ، فليشهد علىّ من حضر أنى تارك للمذهب الذى كنت أذهب إليه ، قائل بقول أبى حُذَيفَة[1] وأنى قد اعتزلت مذهب الحسن فى هذا الباب

ثم انضم عمرو بن عبيد إلى واصل بن عطاء وأخذا فى تقرير مذهبهما لمن تابعهما من الأصحاب والطلاب والاشياع . وفى الواقع أن واصلا وعمرا لم يقصدا بما ارتأياه من مقالتهما « بالمنزلة بين المنزلتين » إلا التوفيق بين مختلف الآراء ، و إلا التقريب فيما بينها ، أملا فى الوحدة الجامعة ، وإشفاقاً من الفرقة الممزقة ، ولم يكن لهما من وراء ذلك أى مأرب فى خلاف أو تفرد برأى يعرفان به ، لولا غضب الحسن من تسرع واصل فى الجواب . لأن واصلا وعمرا قد كانا من الزهد والورع والنسك والتقوى واستقامة الطريقة إلى الحد الذى ليس وراءه متطلع ،وناهيك برجلين كانا مفخرة أستاذهما أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ؟![2] فهذا أبو بكر الخوارزمى[3] كان يقول لمن سأله عن أبى هاشم : أنظر الى أثره على واصل

(١) كنية واصل

(٢) هو أبو هاشم عبدالله بن محمد بن على بن أبى طالب . وأبوه المعروف بابن الحنفية . وأبو هاشم هو الذى بشر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بمصير الخلافة إلى ولده . ولأبى هاشم أتباع من الشيعة يقولون بامامته وهم من فرقة الكيسانية . وقد كان عظيم القدر جليلا موقرا كثير العلم والفضل والادب

(٣) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب المجيد والشاعر البليغ أحد أفراد الأئمة فى اللغة والأدب والانساب . وكان حافظا مجودا . وهو ابن أخت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الشهير. وله رسائل جيده وأشعار حسان : توفى سنة ٣٩٣ هـ

ابن عطاء وعمرو بن عبيد : ماذا أقول فى جمر هذا شرره ، وفى سيف هذا أثره ، وفى كريم هذا نتاج سؤدده ، وآثار يده ؟!

وفى تسميتهما وأتباعهما « بالمعتزلة »أقوال : منهـا أن الحسن البصرى عند ما فارقه واصل قال: إعتزل عنا واصل. ومنها أن الناس قالوا حينئذ : إن واصلا وعمراً اعتزلا قول الأمة. ومنها أن قَتَادَةَ بن دعامة لما جلس فى مجلس الحسن البصرى بعد وفاته ، فارقه عمرو بن عبيد ، فسماه وأتباعه « المعتزلة » وقال وهب بن منبه[1]: إعتزل عمرو بن عبيد وأصحابٌ له الحسنَ فسموا « المعتزلة »

والذى أميل اليه وأرجحه فى سبب هذه التسمية، ما قيل من أن قتادة ابن دعامة السدوسى ، وكان من أصحاب الحسن ومن أحلاس مجلسه — وكان أكمه ، ومع ذلك فقد كان يسير فى أنحاء البصرة بغير قائد— فدخل المسجد يوماً و إذا به أمام مجلس ظنه فى بادئ الأمر مجلس الحسن، إلا أنه ما لبث أن سمع أصواتاً مرتفعة بعبارات لا يعرفها ، وكلاماً لا عهد له بمثله ، فلما عرف أنه مجلس واصل وعمرو قال : أهؤلاء المعتزلة ؟! قال هذا من باب الاستفهام الإنكارى . فسموا من يومئذ بهذا الاسم . وهذا أقرب الأسباب إلى محجة الصواب ، لأن مسحة الطبع غالبة عليه .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن منبه المحدث الاخبارى المشهور . أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى لفتح اليمن وطرد الحبشة منه ورد الملك إلى سيف بن ذى يزن . وكان واسع الاطلاع عارفا بأخبار الأول . مات بصنعاء سنة ١١٠ هـ

وقد روى الإمام أبو الحسن الأشعرى [١] عقيدة المعتزلة فى التوحيد. وغيره فقال :

«أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عَرَض ، ولا بذى لون ، ولا طعم ولا رائحة ، ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ، ولا برودة ، ولا رطوبة ، ولا يبوسة ، ولا طول ، ولا عُرض ، ولا عمق ، ولا اجتماع ، ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا يتبعَّض . وليس بذى أبعاض وأجزاء ، وجوارح وأعضاء . وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال ، وأمام وخلف ، وفوق وتحت . ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المُمَاسَّةُ ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن . ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم . ولا يوصف بأنه مُتَنَاهٍ . ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات . وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات . وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم ففير مشبه له . لم يزل أولا سابقاً متقدماً للمحدَثات ، موجودا قبل المخلوقات . ولم يزل عالما قادرا حيا . ولا يزال كذلك . لا تراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأوهام ، ولا يسمع بالأسماع . شئ لا كالأشياء ،

(١) هو أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى . من سلالة أبى موسى الأشعرى الذى حكم بين معاوية وعلى . وأبو الحسن هذا هو رأس فرقة الأشعرية . وقد كان على مذهب المعتزلة حتى بلغ الأربعين من عمره ثم فارقهم . وكان ربيب أبى على الجبائى أحد أكابر المعتزلة . توفى سنة ٣٢٤ هـ

عالم قادر حى ، لا كالعلماء القادرين الأحياء . وأنه القديم وحده ، ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق . لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ، ولا بأصعب عليه منه . لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل اليه الأذى والآلام . ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص . تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء »

وقد تواضع فقهاء المعتزلة على أصول خمسة اتخذوها أساساً لمذهب الاعتزال ، واتفقوا على أن من اعتنقها تامة كاملة استحق اسم « المعتزلى » ومن اعتنق بعضها دون البعض . أو زاد عليها ماليس منها فلا يستحق شرف هذه النسبة . وهذه الأصول هى :

(١) ألتوحيد — وهو اعتقاد أن الله تعالى واحد لاشريك له فى وحدانيته وأنه قديم وكل ما سواه محدث . وأنه لاتدركه الحواس فى الدنيا بأى كيفية ، ولا يُرى فى الآخرة بأى صورة . خلق الأشياء وابتدعها على غير مثال ، وتنزه عن الأشباه والأمثال ، لا يحصره مكان ، ولا يحده زمان . ليس بجسم ، ولا عَرَض ، ولا عنصر ، ولا جزء ، ولا جوهر . وهو البارىء لهذا كله . وهو عالم لذاته ، لابعلم . قادر لذاته ، لابقدرة . حى لذاته ، لا بحياة . ولكنها صفات قديمة ، ومعان قائمة به ، غير مشاركة له فى القدم الذى هو أخص صفاته الذاتية .

وقد وُضع هذا الأصل رداً لأقوال المُجَسِّمَةِ [1] ودفعاً لمزاعم

(١) هم فرقة قديمة تجعل لله جسما ذا أعضاء كجسم الانسان . تعالى الله

المُشَبِّهَةِ[١] من الرافضة[٢] وغُلاة الشيعة. وعلى رأسهم مُقاتلُ بن سليمان[٣]

(٢) العدل — وهو اعتقاد أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد ، ولا يفعل الشر . بل هو لحكمته لا يفعل إلا الخير والصلاح ، ولا يصدر عنه إلا ما فيه رعاية مصلحة العباد . وأن أفعال العباد التى تصدر عنهم من خير وشر وصلاح وفساد ، منسوبة إليهم يثابون عليها ويعاقبون بها فى دار الجزاء . لأنهم بقدرة رُكِّبَتْ فيهم قادرون على خلق أفعالهم ، وهو سبحانه المالك لها دونهم ، يسلبهم إياها إذا شاء ، ويبقيها لهم إذا أراد ، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطراريًا عن معصيته ، ولكنه لا يفعل . إذ كان فى ذلك رَفْعُ المحنة ، وإزالة للبلوى . ولم يكلف عباده مالا يُطِيقون ، ولا أرادهم على مالا يقدرون عليه . وأنه تعالى ولى كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها . لا يقدر أحد على قبض أو بسط إلا بقدرة التى ركبت فيه.

وقد وُضع هذا الأصل ردًا على الْمُجْبِرَةِ[٤] ، و بعض الرافضة القائلين

---

(١) هم فرقة لها رأيان فى التشبيه: فمن قائل منها بتشبيه ذات البارى بذات غيره من مخلوقاته . ومن قائل بتشبيه صفاته بصفات مستحدثاته

(٢) هم فرقة من الشيعة غالت فى رفض تولى أبى بكر وعمر ، ولها آراء وفكر غريبة

(٣) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان الخراسانى الأزدى بالولاء ، كان من العلماء الأجلاء اشتهر بتفسير كتاب الله العزيز حتى قال الامام الشافعى: الناس كلهم عيال على ثلاثة : على مقاتل بن سليمان فى التفسير، وعلى زهير بن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام. وقوم يوثقونه وقوم يجرحونه ، وكان يرمى بالتشبيه. توفى بالبصرة سنة ١٥٠ هـ

(٤) هم فرقة كانت تقول بأن الانسان مجبر على إحداث أعماله من حسنة وسيئة

بجواز وقوع الظلم من الله تعالى ، وعلى رأسهم جَهْمُ بنُ صَفْوَانَ (١)

(٣) الوعد والوعيد — وهو اعتقاد أن الله تعالى صادق الوعد ، نافذ الوعيد ، يثيب المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة واستقامة ، ولا يغفر لمرتكب الكبائر إذا خرج من الدنيا على غير توبة ، وإلا استحق الخلود فى النار . غير أن عقابه يكون أخف من عقاب الكافر . ودركته فوق دركته . لامبدل لكلمات الله .

وقد وُضع هذا الأصل رداً على القائلين بجواز الكذب على الله تعالى فيما وعد به وأوعد .

(٤) الأسماء والأحكام — أو — المنزلة بين المنزلتين — وهو الإقرار بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ولكنه يُعد فى منزلة بين الإيمان والكفر ، وهى الفسق .

فاذا خرج من الدنيا وهو مُصِرٌّ على فسقه كان مُخلداً فى النار ، ولكن لاعلى طريق خلود الكافرين فيها .

وهذا الأصل هو منشأ الاعتزال . وما أراد به واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد ، حين نهضا به ، إلا التآلف والتوافق بين مختلف الآراء ، ونفى التَّشَادّ من بين الخوارج وخصومهم . ولأن الإيمان عندهما وعند أصحابهما عبارة عن خصال الخير إذا اجتمعت فى إنسان سمى مؤمناً . وهو اسم مدح . والفاسق لم يستجمع الخير ، فهو غير حقيق باسم المدح ، وهو إذاً لا يسمى مؤمنا ، وليس هو بكافر . لأن الشهادة وما يندرج تحتها من خصال الخير موجودة فيه لا إنكار لها ، ولكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير

(١) هو جهم بن صفوان الترمذى . فارسى الأصل وهو رأس الجبرية المخالفة للقدرية . وإليه تنسب فرق الجهمية . مات سنة ١٣١ هـ

توبة، حق عليه الخلود فى النار، إذ ليس فى دار الجزاء إلا « فَرِيقٌ فى الجَنَّةِ وفَرِيقٌ فى السَّعِير » .

(٥) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهو الإقرار بأن أهل الإيمان مكلفون بمراعاة حدود الله و إقامة أحكامه، وأن التكاليف إنما هى ألطاف من الله تعالى امتحن بها عباده بواسطة رسله واختبرهم بأدائها « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ » وأوجب على كل مؤمن الدعوة إليها والتحذير من مخالفتها .

وقد وُضع هذا الأصل تنفيذا لقوله تعالى « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وتقييداً للمعتزلة بالقيام عليها، والصدوع بها، والنهوض بحمل أعبائها .

فهذه هى الأصول الخمسة التى وضعها فقهاء المعتزلة عقيدةً لهم يدورون حولها، ويتجهون نحوها، ولا يبغون عنها حولا . مع إجازة البحث فيما يتفرع عنها من الآراء، والنظر فيما يعرض فيها من الفكر .

ولهم غير هذه الأصول رأى فى الإمامة وقول فى الإمام . فهم يرون أن الإمامة اختيار من الأمة، فللأمة الحق المطلق فى اختيار الإمام الذى يستطيع النهوض بأحكام الله تعالى فينفذها على وجهها و يردها إلى الحدود التى وضعتها الشريعة لها، سواء أكان الإمام من قريش، أم كان من غيرها. لأنهم لا يقرون بأن هناك نصاً على رجل بعينه، أو على قبيلة بذاتها . وقد وافقهم على ذلك جماعة من الزيدية . وسائر الخوارج من الأباضية وغيرهم، إلا النجدات من الخوارج. مستدلين فى ذلك بما روى من أن عمر بن الخطاب حينما فوض الأمر إلى أهل الشورى قال : لو كان سالم[1] حياً ما داخلنى فيه ريبة .

(١) هو سالم بن معقل. أصله من اصطخر . كان مولى أبى حذيفة بن عتبة.

وسالم، هذا كان مولى لامرأة من الأنصار، وكان يعرف بسالم مولى أبي حذيفة — فلو لم يكن عُمَرُ على علم من أن الامامة جائزة فى سائر المسلمين لما أطلق هذا القول، ولما تأسف على موت سالم فى هذا المقام. وقد خالفهم فى ذلك أبو حنيفة، وأكثر المرجئة وجمهور الزيدية[1] من الجارودية وغيرهم، وسائر الشيعة، والرافضة، والراوندية[2] فذهب هؤلاء جميعاً إلى أن الامامة لاتجوز إلا فى قريش · مستدلين فى ذلك بما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الامامة فى قريش، قَدِّمُوا قريشاً ولا تَقَدَّمُوهَا.

وقد مضى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إلى ربهما قبل أن تذيع فى الناس ترجمة كتب الفلسفة والحكمة والمنطق والطبيعيات والآلهيات وغيرها عن اليونان والفرس والروم والهند والسريان. أعنى أنهما تركا المذهب بسيطاً ساذجاً، لم يعتمدا فى إبانته وتثبيت دعائمه، إلا على البلاغة العربية والفصاحة البدوية وإلا على البيان وقوة اللسان. فلما ذاعت هذه العلوم منقولة إلى العربية فى أوائل العصر العباسى أقبل الناس عليها، وتهافتوا على شرعتها، فنشأ علم الكلام. فكان ممن برع فيه وفى غيره من علوم الأوائل، زعيمهم المبين وفيلسوفهم الكبير أبو الهذيل العلاف، ثم ذكيهم الألمعى، وفطنهم اللوزعى، أبو إسحق ابراهيم بن سيار النظام، ثم حامل لوائهم والذائد عن حياضهم وخطيب حفلهم ومخلد ذكرهم صاحبنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح واستقامة السيرة. شهد بدرا وآخى رسول الله بينه وبين أبى بكر. واستشهد يوم اليمامة فى حرب مسيلمة الكذاب

(١) هم فرقة من فرق الزيدية تنسب إلى أبى الجارون زياد بن المنذر العبدى، انفردوا برأى فى الامامة وفى شأن الصحابة

(٢) هم فرقة من شيعة بنى العباس. قد غالت فى تشيعها إلى حد دعا الخليفة المهدى إلى تجريد الجيوش عليها وتشتيت شملها كما أظهرت الخروج فى مذهبها